سُورَةُ التَّوْبَةِ

بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾
فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ
إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ
وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟
أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا
وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ
فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ
وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۖ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟
ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ
مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ
ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

سورة التوبة

سورة التوبة مدنيّة وآياتها تسع وعشرون ومائة آية.

لم تبدأ هذه السورة بالبسملة، وقد ورد في ذلك عدة أقوال، الأجود منها قولان:

القول الأول: أن سورة التوبة إعلان حرب وبراءة من الكفار، ومثل هذا لا يناسب الرحمة والتسمية.

والقول الثاني: أن سورة التوبة وسورة الأنفال موضوعهما متقارب؛ فكأنهما سورة واحدة؛ فإذا وُحدتا صارت نهاية السبع الطوال.

[١] بدأت السورة بإعلان من المولىٰ جل وعلا ورسوله ﷺ البراءة من جميع المشركين المعاهدين؛ بسبب نقضهم لعهودهم مع النبي ﷺ، وذلك بقطع جميع العلاقات معهم.

[٢] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ والمؤمنين أن يعطوا الكفار أربعة أشهر استراحة لكي يتفكروا ويقرروا: إما أن يُسْلِمُوا أو يُحَارَبُوا، وهذا خاص بكفار جزيرة العرب لأنهم مشركون، أما أصحاب الديانات السابقة فلهم حديث آخر، واعلموا أيها المشركون أنكم خلال هذه الاستراحة لن تفلتوا من عقاب الله، واعلموا أيضًا أن الله مذل ومخز لكم في الدنيا، ولكم في الآخرة عذاب أليم شديد في نار جهنم.

[٣] واعلموا أيها الناس أن هذه الآيات إعلانٌ وإنذارٌ أن الله ورسولَهُ بريئان من المشركين الذين نقضوا عهدهم مع الرسول ﷺ، وسوف نعلن هذه البراءة يوم الحج الأكبر الذي هو يوم عرفه؛ حيث بعث ﷺ أبا بكر الصديق ليحج بالناس في السنة التاسعة من الهجرة، وبعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه بسورة التوبة ليخطب في الحجاج ويقرأها عليهم، حتىٰ يعلم الجميع أن المشركين نجس، وأن لا يدخلوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا، وأعلن البراءة من الشرك والكفر وأعطاهم الأربعة أشهر، وكانت خطبته عامَّة لأمور المسلمين، ثم دعا سبحانه المشركين إلىٰ التوبة من الشرك، وبين لهم أن التوبة خير لهم، أما إذا أعرضوا ورفضوا قبول الحق وهو الدخول في دين الله؛ فلن يفلتوا من عقاب الله وعذابه، ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يبشر الكفار بعذاب أليم ينتظرهم يوم القيامة بسبب كفرهم وجحودهم وعنادهم.

[٤] ثم استثنىٰ جل وعلا من قتال المشركين الذين بينهم وبين المسلمين عهد محدد بمدة، ولم يخونوا وينقضوا العهد، ولم يُعَاوِنُوا الأعداء علىٰ قتال المسلمين؛ فهؤلاء أتموا إليهم عهدهم إلىٰ المدة المحددة بينكم، واعلموا أن الله يحب المتقين الذين عملوا بطاعة الله واجتنبوا معاصيه، والتزموا بالعهود والمواثيق.

[٥] واعلموا أيها المؤمنون أنه إذا انقضت المهلة وهي الأربعة أشهر فإن الله يأمركم بإعلان الحرب، وقتال المشركين في أي مكان لقيتموهم فيه؛ سواء في الحل أو الحرم، وحاصروهم في أماكنهم وبيوتهم، وترصدوهم في كل مكان وضيقوا عليهم في تحركاتهم؛ فإذا تابوا وأنابوا ودخلوا في دين الله وأقاموا الصلاة المكتوبة وأخرجوا زكاة أموالهم، فاتركوهم، ولا تؤذوهم؛ لأنهم أصبحوا إخوانكم في الدين، إن الله غفور لمن تاب وأناب ورحيم بعباده المؤمنين.

قال بعض المفسرين: هذه الآية تسمىٰ آية السيف، أي: آية إيجاب الجهاد.

[٦] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ إذا استأمنه أحد المشركين وطلب منه الجوار فعليه أن يُؤَمِّنَهُ حتىٰ يتروىٰ ويسمع القرآن ويتدبره، ويعرف شيئًا عن الإسلام يشجعه للدخول فيه، وهذا من رحمة الله بعباده؛ ومن إقامة الحجة عليهم، ثم أمر سبحانه النبي ﷺ أن يوصله إلىٰ المكان الآمن الذي يريده، واعلم يانبي الله أن هذا الذي أمرك الله به من إجارة المستجير من المشركين؛ لأنهم قوم لا يعلمون ما ينفعهم ويجهلون حقيقة الإسلام.

قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي تعليقًا علىٰ قوله: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾: الصوت صوت القارئ، والكلام كلام البارئ، فالكلام صفة الله أزلًا وليس مخلوقًا كما تقوله الفرق الضالة.

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ
إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟
لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾
كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا
ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ
فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن
سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ
فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن
تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى
ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن
نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ
فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ
يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ
وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ
أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

[٧] يخبر جل وعلا أنه لا ينبغي أن يكون للمشركين الغادرين عهد عند الله وعند رسوله؛ وهذا استبعاد لثبات المشركين علىٰ الحق، وأنهم إن سنحت لهم فرصة نقضوا العهد؛ ثم استثنىٰ سبحانه الذين عاهدتهم عند المسجد الحرام ما داموا مستمرين علىٰ العهد ولم ينقضوه، وذلك حرمة لبيت الله وللسكان المستظلين به، وصدق الله فإنه لا عهد للمشركين؛ فقد نقضوا العهود وقتلوا المسلمين ركّعًا وسجّدًا، واعلموا أن الله يحب المتقين الذين يخافون الله بالمحافظة علىٰ العهود وعدم نقضها.

وقد ذكر المفسرون عندما نقضت قريش العهد الذي بينها وبين رسول الله ﷺ، وآذوا المسلمين وعذبوهم جاء المستنصر يستنجد برسول الله وهو عمرو بن سالم الخزاعي فدخل علىٰ رسول الله ﷺ وأخبره بما فعلت قريش فيهم وأنشد أبياتًا مطلعها:

اللهُـمَّ إِنِّـي نَاشِـدٌ مُحَمَّـدًا ... حِلْـفَ أَبِينَـا وَأَبِيـهِ الْأَتْلَـدَا
فَانْصُرْ هَدَاكَ اللهُ نَصْرًا أَعْتَدَا ... وَادْعُـوا عِبَـادَ اللهِ يَأْتُـوا مَـدَدَا
هُـمْ بَيَّتُونَـا بِالْوَتِيـرِ هُجَّـدَا ... فَقَتَلُونَـا رُكَّعًـا وَسُـجَّدَا

فقال ﷺ حينها: «**لا نُصِرْتُ إن لم أنصركم بما أَنْصُرُ به نفسي**»[1]، ثم أخذ ﷺ يستعد سرًّا للزحف علىٰ مكة، وكان بحمد الله أن فتحت مكة شرفها الله.

(١) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٦١- ١٦٢) بنحوه عن عائشة.

[٨] ثم قال جل وعلا: بأي صفة يكون للمشركين عهد أو ميثاق وهم لو غلبوكم وتمكنوا منكم لن يرحموا فيكم أحدًا، ولن يراعوا قرابة أو عهدًا؟، ولا تغتروا بما تسمعونه منهم من الكلام المقبول والمعاملة الحسنة حال خوفهم وتمكنكم منهم؛ فهم يرضونكم بهذا الكلام ولكن قلوبهم مليئة حقدًا وبغضًا عليكم، وأكثرهم ناقضون للعهود والمواثيق بعيدون عن الحق كل البعد.

[٩] ثم بين جل وعلا السبب الأصيل الذي حمل هؤلاء المشركين علىٰ الغدر والخيانة أنهم استبدلوا بآيات الله: الكفرَ، وأعراضَ الدنيا التافهة الحقيرة الزائلة، فأدىٰ ذلك إلىٰ إعراضهم عن سبيل الحق، ولم يكتفوا بهذا؛ بل صدوا غيرهم وصرفوهم عن الحق، ومنعوهم من الدخول في الإسلام، فبئس ما عملوا. **قال الشيخ محمد متولي الشعراوي**: إن ذمة كل شخص قابلة للانصهار بالذهب، لكن الخلاف في الكميات، فالبعض بعشر، والآخر بمائة، والبعض بألف، والنادر بمليون أو ملايين، ويقصد الشيخ في كلامه: أن بعض النفوس تشتريها بالرشوة، ولكن تتفاوت قيمة هذه الرشوة من شخص لآخر، نسأل الله العافية، وتعميمه فيه نظر؛ فقد شمل حتىٰ من رحم الله وهم قله.

[١٠] واعلموا أيها المؤمنون أن هؤلاء المشركين لا يراعون قرابة أو عهدًا أو حلفًا؛ بل إنهم ضرر علىٰ الإسلام وأهله، وهم المتجاوزون لحدود الله بغدرهم ونقضهم العهود والمواثيق.

[١١] ثم وجه جل وعلا المؤمنين وأخبرهم بكيفية التعامل مع المشركين إذا رجعوا عن شركهم، وأقلعوا عن عبادة غير الله، ووحدوا الله ولم يشركوا به شيئًا، ثم التزموا شرائع وأحكام الإسلام من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ فإنهم بذلك يكونون إخوانًا لكم في الإسلام، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم، ولا يحل لكم أيها المسلمون قتالهم، والله جل وعلا يبين آياته ويوضحها ويميزها لقوم ينتفعون بها.

[١٢] ثم وجه جل وعلا أيضًا المؤمنين وأخبرهم بكيفية التعامل مع المشركين حالَ نقضهم العهود والمواثيق، فقال سبحانه: فإذا نقض هؤلاء المشركون الأيمان، ونكثوا العهود التي أبرموها معكم، وذلك بأن يقاتلوكم أو يعينوا عليكم، أو يطعنوا في الإسلام بأن يعيبوه أو يسخروا منه، أو ينالوا من القرآن، أو الرسول ﷺ؛ فحينئذٍ عليكم بقتال أئمتهم وقاداتهم -وغيرهم تبع لهم- قتالًا لا هوادة فيه، فإنهم لا يراعون عهودًا ولا مواثيق، لعلهم ينتهون عن كفرهم ونكثهم وطعنهم في دين الإسلام.

[١٣] يحض جل وعلا عباده المؤمنين ويهيجهم لقتال هؤلاء المشركين، ذاكرًا أوصافهم الشنيعة، وأفعالهم القبيحة من نكث للعهود والمواثيق وسعيهم وعزمهم علىٰ إخراج الرسول ﷺ من وطنه مكة، وبدئهم ومبادرتهم بقتالكم وإيذائكم؛ فهذه الصفات كفيلة لكم أيها المؤمنون لقتالهم وعدم خشيتهم وعدم الخوف منهم، ثم يحث جل وعلا عباده المؤمنين مرة أخرىٰ بسؤالهم: أتخافون أن ينالكم منهم مكروه فتتركوا قتالهم؟، فاعلموا أن الله هو الذي أمركم بقتالهم، وهو أحق أن تخافوه، فإنه هو الضار النافع، إن كنتم مؤمنين حقًّا.

قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ
عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ
قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾
أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ
وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ
وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ
ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ
أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ
ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى
ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ
ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ
ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ
ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾

[١٤-١٥] كرر جل وعلا أمره لعباده المؤمنين بقتال المشركين، وبين لهم فوائد ذلك بأن يعذبهم الله بأيديكم بقتلهم وأسرهم، ويذلهم بالخزي والهزيمة، ويرزقكم النصر والغلبة عليهم، ويشفِ بذلك صدوركم التي طالما لحقها الحزن والغم من كيدهم ومكرهم، وأيضًا يذهب الله تعالىٰ بغلبكم إياهم الغيظ الذي في قلوبهم عليكم؛ بحيث يقتنعوا بأن النصر من الله وأن الله يديل الحق علىٰ الباطل، بسبب حربهم لله ورسوله وسعيهم في إطفاء نور الله، كما قال شاعرهم وهو فروة بن مسيك يسلي قومه:

وَمَا إِنْ طِبُّنَا جُبْنٌ وَلَكِنْ ... مَنَايَانَا وَدَوْلَةُ آخَرِينَا

ومع ذلك فإن الله يتوب علىٰ من يشاء من هؤلاء المحاربين بدخولهم في الإسلام، والله عليم بصدق من تاب منهم، وهو حكيم يضع الأشياء في مواضعها.

[١٦] ثم يقول جل وعلا: أتظنون أيها المؤمنون أن تُتركوا دون اختبار وامتحان يتبين من خلاله الصادق من الكاذب؟ ذلكم الابتلاء هو الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله وحده، وعدم اتخاذ بطانة وأولياء من المشركين؛ والله خبير بجميع أموركم وأحوالكم، وسيجازيكم عليها.

[١٧] واعلموا أيها الناس أنه لا يليق بالمشركين أن يعمروا بيوت الله، وهم يعلنون الكفر بالله، ولا شك أن عمارتهم للكعبة عمل متناقض؛ حيث إنهم يعمرون المسجد ثم يضعون فيه الأصنام؛ فلا شك أن عملهم هذا حابط لا قيمة له عند الله، وفي نار جهنم خالدين مخلدين أبدًا إلا من تاب وأناب منهم ودخل في دين الإسلام.

[١٨] واعلموا أيها الناس أن العمّار الحقيقيين للمساجد، هم المصدقون بدين الإسلام وباليوم الآخر، العاملون الأعمالَ الصالحة من صلاة وزكاة، الذين يخافون الله، ولا يخافون في الله لومة لائم، أولئك هم عمّار المساجد حقًّا، وأولئك هم المهتدون صدقًا.

[١٩] يخبر جل وعلا أنه لا يمكن المساواة بين أعمال المشركين وأعمال المؤمنين، فقال سبحانه: أجعلتم أيها المشركون أعمالكم كتوفير ماء الشرب للحجاج، والاهتمام ببناء المسجد الحرام وغيرها؛ كأعمال المؤمنين؛ مِنَ الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيل الله بالنفس والمال؟ فاعلموا أنه لا يمكن المساواة بينها، ولو كانت أعمال المشركين أعمال خير وإحسان، لأنها أعمال حابطة ما دام أن القائم بها مصرٌّ علىٰ الكفر والشرك وعبادة الأصنام، واعلموا أن الله لا يوفق للهداية ومعرفة الحق الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والبعد عن دين الله وأصروا علىٰ ذلك.

[٢٠] واعلموا أن الذين آمنوا بالله ورسوله وصدقوا بما أُنزل علىٰ محمد ﷺ، وهاجروا من بلاد الكفر إلىٰ بلاد الإسلام، وأنفقوا أموالهم في سبيل الله، وجاهدوا الكفار بأنفسهم؛ لإعلاء كلمة الله؛ لا شك أن هؤلاء أعظم درجة عند الله، وهم الفائزون برضوان الله وجنته ونعيمه.

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا
نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ
عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ
وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ
وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن
كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ
وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ
كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ
بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ
ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ
كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ
ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ
سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا
لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾

[٢١] ثم بين سبحانه أنه برحمته بعباده المؤمنين يبشرهم في الدنيا برضوان الله عليهم، وما لهم في الآخرة من الجنات والنعيم المستمر الذي لا ينقطع أبدًا.

[٢٢] ثم بين سبحانه أنهم خالدون مخلدون في تلك الجنات، وأن الله عنده أجر عظيم لا يعادله شيء من خيرات الدنيا.

[٢٣] ياأيها الذين آمنوا بالله ورسوله لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أحبابًا وأنصارًا من دون الله؛ إذا استمروا في كفرهم وضلالهم، وفضلوا الكفر علىٰ الإيمان، واعلموا أن من يتخذهم أولياء من دون الله فأولئك هم العاصون لله الظالمون لأنفسهم ظلمًا عظيمًا.

وهذا لا ينافي البر بالوالدين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان:١٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[الممتحنة:٨].

وهذه الآية نزلت لتوجيه الصحابة؛ لأن بعض الصحابة لما عزموا علىٰ الهجرة إلىٰ المدينة تعلق بهم آباؤهم وزوجاتهم، وقالوا: إذا ذهبتم ضِعنا وتعبنا فأنتم الذين تجلبون لنا الرزق والأمن؛ فأمر الله المؤمنين بعدم الرضوخ لرغباتهم ما داموا مستحبين الكفر رافضين للإيمان مع برهم والإحسان إليهم.

[٢٤] وقل يانبي الله لهؤلاء المؤمنين: إن فضلتم وآثرتم الآباء والأمهات والإخوان - في النسب والعشرة -، والأزواج، والقرابات، والأموال المكتسبة، والتجارة التي تخافون عدم رواجها، والبيوت الحسنة المزخرفة الموافقة لأهوائكم، إن آثرتم ذلك وفضلتموه علىٰ حب الله ورسوله ﷺ والجهاد والهجرة في سبيل الله - بهذه الأعذار والحجج الباطلة -؛ فأنتم فسقة ظلمة تفضلون الدنيا علىٰ الآخرة، وتقدمون الفاني علىٰ الباقي؛ فانتظروا نكال الله وعقابه الذي لا مرد له، والله لا يرشد ولا يوفق الخارجين عن طاعته، الذين يقدمون محبوباتهم علىٰ محبته ورضاه سبحانه وتعالىٰ.

وقد جاء في الحديث عن ابن عمر رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزَّرع، وتركتم الجهاد، سلَّط الله عليكم ذلًّا لا ينزعه حتَّىٰ ترجعوا إلىٰ دينكم**»(١).

[٢٥] وتذكروا أيها المؤمنون يوم أن نصركم الله في غزوات عديدة بفضله وكرمه جل وعلا؛ مع ضعفكم وقلة عددكم وعدتكم وكثرة عدوكم كما في غزوة بدر، أما في غزوة حنين فقد تلقىٰ المسلمون درسًا لكنه ليس كدرس أُحُد؛ حيث كان درسًا قاسيًا استفاد منه المسلمون في حروبهم التالية؛ ففي غزوة حنين كان مع الرسول ﷺ عشرة آلاف ثم انضم إليهم أهل مكة فصار الجمع كبيرًا لا مثيل له من قبل، ولهذا قال بعض الصحابة: لن نُغلب اليوم من قلة، يعني: اعتزوا واغتروا بقوتهم، وفاتهم أن النصر من عند الله وليس بالكثرة؛ فَكَمِنَ لهم العدو بمضائق الأودية ثم فاجأوا المسلمين بوابل من السهام من كل جانب فانهزم المسلمون ولم يجدوا ملجأً في الأرض فهربوا وتركوا رسول الله ﷺ، إلا قلة بقوا معه ﷺ، ثم أمر رسول الله ﷺ العباس - وكان صوته جهوريًّا عاليًا - أن ينادي أصحاب بيعة الرضوان وأهل بدر فرجعوا؛ ثم بحمد الله تحولت الهزيمة إلىٰ نصر بإذن الله تعالىٰ.

[٢٦] ثم بين جل وعلا أنه أنزل سكينةً تُثبِّت القلوب وتطمئنها وقت الفزع والزلزلة، أنزلها الله علىٰ رسوله ﷺ، وعلىٰ المؤمنين فهدأ روعهم، وثابت لهم عقولهم، وأقبلوا - مرة أخرىٰ - علىٰ عدوهم، وأنزل الله الملائكة معونة ونصرة لهم؛ فكان أنْ عذَّب الله الكفار علىٰ أيديهم، فهزمهم المسلمون، وقتلوا المقاتلين، وسبوا نساءهم، واستولوا علىٰ أموالهم وأولادهم، وتلك عقوبة الله للكافرين.

ولا شك أن الدروس المستفادة من غزوة حنين كثيرة لكن الدرس الأهم: أن لا يُعجب المسلمون والمجاهدون بكثرتهم ولا بعدتهم ولا يغتروا بأنفسهم، وليس معنىٰ هذا أن يتركوا الاستعداد وأخذ الحيطة، ولكن عليهم أن يستعينوا بالله ويعتمدوا عليه في كل شئون حياتهم، وعليهم أن يستمدوا النصر منه وحده سبحانه مع أخذ العدة اللازمة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال:٦٠].

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٤٦٢).

ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ
غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ
نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ
وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ
إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٢٨ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ
لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ
مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ
ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ
وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ
وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم
بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ
قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٣٠ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ
وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ
مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ
لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١

[٢٧] وبعد هذه العقوبة الشديدة التي حلَّت بالكافرين؛ فتح الله لهم باب التوبة، فتاب علىٰ كثير منهم فأسلموا ورد النبي ﷺ عليهم نساءهم وأولادهم، وهذا من عظيم مغفرة الله ورحمته بعباده، فهو سبحانه ذو مغفرة واسعة ورحمة عامة، يقبل توبة التائبين، وإنابة المنيبين.

[٢٨] وهذا نداء لأهل الإيمان، ليبين لهم أن المشركين نجس، أي: خبثاء العقائد والأعمال، فإياكم أن تمكنوهم من الاقتراب من المسجد الحرام - لأي سبب كان - بعد هذا العام، وهو العام التاسع الهجري، ولا تخافوا الفقر والحاجة إذا منعتموهم، فإن الله باسط لكم من رزقه الواسع العميم، وفاتح عليكم من فضله العظيم إن شاء، فالله عليم بحالكم، وهو سبحانه يضع الأشياء في مواضعها.

وفي قوله: ﴿نَجَسٌ﴾، أن نجاسة الكفار المعنوية ثابتة، والخلاف في نجاستهم الجسمية.

[٢٩] يأمر جل وعلا المسلمين بقتال الكفار الذين لا يؤمنون بالله، ولا يؤمنون بالبعث والجزاء، ولا يُحرِّمون ما حرَّم الله ورسوله من الزنا والخمر وأكل الميتة وغيرها من المحرمات، ولا يتحاكمون إلىٰ دين الله وشرعه من اليهود والنصارىٰ، حتىٰ يدفعوا الجزية وهم خاضعون ذليلون.

وقد ذكر العلماء أن الكفار ينقسمون إلىٰ ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يُقاتَلُون حتىٰ يُسلِموا، ولا يُقبل منهم شيء آخر غير الإسلام، وهم المرتدون والمشركون من عرب الجزيرة.

القسم الثاني: يُقاتَلُون حتىٰ يُسلموا أو يدفعوا الجزية، وهم اليهود والنصارىٰ، وقال الرسول ﷺ: المجوس يعاملون مثل اليهود والنصارىٰ، تؤخذ منهم الجزية، ولكن لا تؤكل ذبائحهم ولا يُتزوج من نسائهم إلا إذا أسلمت.

القسم الثالث: عبدة الأوثان الذين ليسوا من عرب الجزيرة كالهنود والأتراك وغيرهم؛ فهذا القسم قال فيهم أبو حنيفة رحمه الله وأصحابه: تؤخذ منهم الجزية حتىٰ يُسلموا؛ فَأَخْذُ الجزية منهم ليس إقرارًا لهم علىٰ باطلهم، ولكن لعلهم يسلمون إذا فَهِموا أن الإسلام دين الحق وأنه دين الرحمة، وأن ما هم عليه ضلال؛ فمعاملتهم تختلف عن معاملة المرتدين والمشركين في الجزيرة العربية؛ لأن كفار الجزيرة عاصروا الدعوة، وعلموا أنها حق، ومع ذلك أصروا علىٰ باطلهم.

[٣٠] يخبر جل وعلا عن مقولة اليهود التي قالوها شركًا وظلمًا وزورًا وبهتانًا: إن عزيرًا ابن الله، وعن مقوله النصارىٰ التي قالوها شركًا وظلمًا وزورًا وبهتانًا: إن المسيح ابن الله، وقولهم هذا بهتان مختَرَع من عند أنفسهم نطقت به ألسنتهم، يتشبهون فيه بالمشركين عبدة الأوثان الذين قالوا: اللات والعزىٰ ومناة والملائكة بنات الله -تعالىٰ الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا-، فلعن الله المشركين وقاتلهم جميعًا، كيف يعدلون عن الحق إلىٰ الباطل!!

[٣١] ثم أخبر جل وعلا أن اليهود اتخذوا علماءهم أربابًا آلهة من دون الله، وأن النصارىٰ أيضًا اتخذوا عبَّادهم أربابًا آلهة من دون الله، يحلون لهم ما حرَّم الله فيتبعونهم، ويحرمون عليهم ما أحلَّ الله فيطيعونهم، واتخذوا أيضًا عيسىٰ عليه السلام إلهًا فعبدوه من دون الله، ولم يأمرهم الله بذلك الشرك؛ بل أمرهم أن يوحدوا الله وأن يفردوه بالعبادة وحده دون غيره، تنزه وتقدس وتعالت عظمته عن شركهم وكفرهم وافترائهم.

يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن
يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ
رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ
كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ
أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ
يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا
فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ
وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ
تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ
شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ
أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ
أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا
يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

[٣٢] يخبر جل وعلا عن اليهود والنصارىٰ ومن شابههم أنهم يريدون إطفاء نور الإسلام، وذلك بسعيهم لإبطال حجج الله وبراهينه؛ وبكذبهم وافترائهم بألسنتهم، ويأبىٰ الله إلا أن يحفظ دينه وينصره ويعليه، ولو كره الجاحدون.

[٣٣] يبين جل وعلا أنه أرسل رسوله ﷺ بالقرآن الذي فيه الهدىٰ للخلق جميعًا، وبالإسلام - الدين الحق - الذي يحث علىٰ كل الأعمال الصالحة، وينهىٰ عن ما سواها؛ ليعليه ويرفعه علىٰ سائر الأديان، بالحجة والبرهان، والسيف والسنان، ولو كره ذلك المشركون ورغمت أنوفهم.

[٣٤] ثم يخبر جل وعلا عباده المؤمنين، أن كثيرًا من علماء وعباد أهل الكتاب يأخذون أموال الناس بغير حق ويأكلونها سحتًا وظلمًا عن طريق الرشوة أو ليحكموا لهم بغير ما أنزل الله؛ ومع ذلك يصدون الناس عن الإسلام وينفرونهم منه؛ فاحذروا أيها المؤمنون من هذا الصنف من الناس، ثم اعلموا أن من يدخر الأموال من الذهب والفضة وغيرهما ادخارًا محرمًا وذلك بأن لا يؤدي حقها من النفقات الواجبة كالزكاة والنفقة في سبيل الله إذا وجبت؛ أن له العذاب الموجع المؤلم في الآخرة.

[٣٥] ثم بين جل وعلا أن هذا العذاب الأليم الذي أوجبه علىٰ الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقون منها في سبيل الله؛ حيث توقد النار علىٰ الذهب والفضة حتىٰ تشتد حرارتها، ثم تُحرق بها جباه هؤلاء وجنوبهم وظهورهم، ومع هذا العذاب الحسّي الشديد يعذبون عذابًا نفسيًّا معنويًّا، فيقال لهم علىٰ سبيل التهكم والتوبيخ واللوم: هذه أموالكم التي ادخرتموها لتنفعكم، وهذه كنوزكم التي أمسكتموها؛ فذوقوا العذاب والحسرة والنكال الأليم بسبب كنزكم وإمساككم ومنعكم حق الله في هذه الأموال.

[٣٦] يخبر جل وعلا أن عدد شهور السنة في قضائه وقدره: اثنا عشر شهرًا - منها يتكون العام -، قد أثبت الله ذلك في حكمه القدري من يوم أن خلق السماوات والأرض، ومن هذه الشهور: أربعة أشهر حرم، وهي: رجب الفرد، وذي القعدة، وذي الحجة، والمحرم، وسميت بذلك: لزيادة حرمتها وتحريم القتال فيها، والظلم فيها أشد من غيرها، واعلموا أن ذلك هو الدين المستقيم، فلا تظلموا فيهن أنفسكم بارتكاب الذنوب والمعاصي وما يغضب الله، ولا بالقتال فيها وهتك حرمتها، وقاتلوا أيها المؤمنون مجتمعين جميع أنواع الكافرين والمشركين، مثلما يقاتلونكم جميعًا، واعلموا - أيها المؤمنون - علم اليقين أن الله مع أهل التقوىٰ بنصره وتأييده، وإذا كان الله معكم فأنتم - لا محالة - منصورون.

إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ
عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ
سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ
﴿٣٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ
ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم
بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ
عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ
شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ
فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ
إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ
مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ
لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ
وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

[٣٧] يخبر جل وعلا عن فعلة منكرة يفعلها المشركون، وهي أنهم ينسؤون، أي: يؤخرون حرمة شهر من الأشهر الحرم إلىٰ شهر آخر، وذلك إذا احتاجوا للقتال في بعض أوقات الأشهر الحرم، كأن يُحلُّوا شهر المحرم، ويحرمون بدلًا منه شهر صفر في سنة، وفي التي تليها يغيرون ذلك، وهكذا، زاعمين - بهذه الفتوىٰ الشيطانية - أنهم لم يقعوا في مخالفة القتال في الشهر الحرام، فأخبر سبحانه أن فعلتهم هذه زيادة في الكفر والضلال؛ ذلك أنهم غيروا حكم الله وبدلوا شرعه بتلاعبهم، وبتحليلهم الحرام، وتحريمهم الحلال، وقد زين لهم الشيطان هذه الأعمال السيئة وحسنها لهم فرأوها حسنة، والله سبحانه وتعالىٰ لا يوفق ولا يرشد القوم الكافرين للحق والصواب والخير - بسبب عنادهم وتكذيبهم-.

[٣٨] ينادي جل وعلا عباده المؤمنين بوصف الإيمان المقتضي تقديم ما يحب الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ محبوبات النفس: ما بالكم إذا دعيتم للجهاد في سبيل الله لقتال أعدائكم، واستُنفرتم لذلك؛ تباطأتم وتكاسلتم وملتم إلىٰ الأرض ولزمتم مساكنكم؟!! أفضلتم أيها المؤمنون الدنيا ولم تبالوا بالآخرة!! آآثرتم الفاني علىٰ الباقي!! فاعلموا أن النعيم الأبدي الخالد في الآخرة إنما ينال بالجهاد والهجرة والنفير في سبيل الله، واعلموا أن نعيم الدنيا التي قدمتموها علىٰ الآخرة -مهما عظُم-؛ فهو حقير وتافه وزائل وقليل بالنسبة لنعيم الآخرة الذي لا انقطاع له، ولا حدَّ لنهايته، واعلموا أن الذي وقر الإيمان في قلبه حقًّا لا يؤثر الدنيا علىٰ الآخرة.

[٣٩] يتوعد جل وعلا من استُنفِر ولم ينفر؛ أن يعذبه الله عذابًا أليمًا في الدنيا والآخرة، وذلك لعظم جُرمه؛ فإنه قد عصىٰ الله، وآثر الحياة الدنيا علىٰ الآخرة، ولم يساعد في نصرة الدين، والذب عن عباد الله الموحدين، فاعلم يامن هذه حاله أن الله سبحانه سيأتي بقوم آخرين ينفرون إذا استُنفروا، ويتولون الله وينصرون نبيه ﷺ، واعلموا أنكم بقعودكم وتخلفكم عن الجهاد وإلقائكم أمر الله ظهريًّا؛ لا تضرون الله شيئًا، فإن الله تعالىٰ غني عنكم، ومتكفِّلٌ بنصر دينه ورسوله ﷺ وأوليائه، واعلموا أنكم أنتم الذين تحتاجون للجهاد، وأنكم أنتم الفقراء إلىٰ الله، والله سبحانه وتعالىٰ علىٰ كل شيء قدير، لا يعجزه شيء، وهو قادر علىٰ استبدالكم، وعلىٰ نصر دينه ونبيه ﷺ وأوليائه بغيركم.

[٤٠] ثم توعد جل وعلا إذا لم تنصروا رسول الله ﷺ فإن الله سوف ينصره ويؤيده، كما نصره يوم أن أخرجه كفار قريش من بلده مكة هو وصاحبه أبو بكر الصديق والتجأوا إلىٰ غار ثور هربًا من المشركين، وفي أثناء وجودهما في الغار وفي هذه الظروف العصيبة يقول ﷺ لصاحبه أبي بكر لما رأىٰ ما عليه من الحزن الشديد: لا تحزن إن الله معنا، يعني: اصبر واطمئن وتوكل علىٰ الله، فأنزل الله سكينته عليه، أي: علىٰ أبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ لأن الرسول ﷺ قد أُنزلت عليه السكينة من قبل، وقد استمر أثر هذه السكينة عليه رضي الله عنه في حياته كلها؛ كما في الحديبية، وكما في وفاة الرسول ﷺ، وكما في قتال المرتدين؛ فقد كان رابط الجأش، فرضي الله عنه وأرضاه، ثم أيد الله النبي ﷺ بالملائكة وبالرعب الذي ألقاه في أعدائه، وأنجاه من عدوه، وجعل الله كلمة الذين كفروا ذليلة مغلوبة، وكلمة الله هي العليا، وذلك بإعلاء شأن الإسلام، والله عزيز لا يُغالبه أحد، حكيم يضع الأشياء في مواضعها المناسبة.

انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ
﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ
وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ
لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ
يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ
حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ
﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن
يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾
إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ * وَلَوْ
أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ
فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم
مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ
الْفِتْنَةَ ۖ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

[٤١] يحرض جل وعلا عباده المؤمنين علىٰ الجهاد في سبيله آمرًا لهم بالنفير في جميع أحوالهم فينفروا في عسرهم ويسرهم، منشطهم ومكرههم، في ضعفهم وقوتهم، وينفروا: شبابًا وشيوخًا، رجالًا وفرسانًا، أغنياء وفقراء، من عنده عيال ومن لا عيال له، ويبذلون جهدهم في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فإن فعلتم ذلك ونفرتم؛ فقد نلتم الخير كل الخير في الدنيا والآخرة إن كنتم تعلمون؛ لأن ذلك هو الذي ينشر الدين.

[٤٢] ثم يبين جل وعلا لعباده المؤمنين بمثال عملي قُبْحَ ترك النفير والخلود إلىٰ الأرض، - كما فعل المتخلفون عن غزوة تبوك -، وأن هذا من صفات المنافقين الذين يفضلون الدنيا علىٰ الآخرة، فيقول الله تعالىٰ لنبيه ﷺ: لو كان ما دعوت إليه غنيمة سهلة، أو منفعة دنيوية يتيسر الحصول عليها، أو كان السفر ميسورًا لا مشقة فيه؛ لاتبعوك وما تخلفوا عنك، ولكن لمّا كان الحال بخلاف ذلك من بُعْد المسافة إلىٰ أطراف الشام، وصعوبة السفر لشدة الحر؛ تثاقلوا عن النفير، وتخاذلوا عن الجهاد، واستثقلوا الخروج، ثم عللوا ذلك واعتذروا بأعذار واهية يعلم الله وهَنها، وأكدوا هذه الأعذار الواهية بالحلف والأيمان أنهم لم يستطيعوا النفير، وأنهم لو تيسرت لهم السبل لنفروا، فأخبر سبحانه المطلع علىٰ ما تُكِنُّ الصدور أنهم بهذا التخلف عن الجهاد، وبهذه الأعذار الواهية، وبهذه الأيمان الكاذبة؛ يُهلكون أنفسهم، ويعرضونها للعذاب الشديد، فالله يعلم كذبهم في حلفهم، ويعلم أنهم تركوا الجهاد نفاقًا وزهدًا في الخير.

[٤٣] لما انتدب رسول الله ﷺ الصحابة للذهاب معه إلىٰ تبوك لغزو الروم استأذن المنافقون والذين في قلوبهم مرض الرسول ﷺ في التخلف عن المعركة؛ فأذن لهم في التخلف؛ فعاتبه الله علىٰ السماح لهم، وعتاب الله لرسوله ﷺ ليس لذنب، ولكن لأنه استعجل في السماح لهم؛ حيث كانوا مستطيعين وعندهم العدة للخروج؛ فلو تأخر في الإذن حتىٰ يتبين له خبثهم بأنهم سوف يتخلفون أذن أو لم يأذن؛ وحتىٰ يعرف الصحابة والرسول ﷺ نفاقهم وعصيانهم وكذبهم؛ فكان عدم التعجل في الإذن أولىٰ، لذلك تمت المعاتبة التي ليست من أجل ذنب، ولكن من ترك الأولىٰ.

قال سفيان بن عيينة: انظروا إلىٰ هذا اللطف: بدأ بالعفو قبل ذكر المعفىٰ عنه، وذكرني قول سفيان بقول القائل:

عَتَبْتُمْ فلَمْ نَعلَمْ لطيبِ حديثِكمْ أذلِكَ عَتْبٌ أمْ رِضىً وتَوَدُّدُ

[٤٤] يخبر جل وعلا أنه ليس من شأن المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر أن يستأذنوا النبي ﷺ في التخلف عن الجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، والله عليم بالمتقين الذين يعملون بأوامر الله ويجتنبون نواهيه.

[٤٥] واعلم يانبي الله إنما يستأذنك في التخلف عن الجهاد في سبيل الله أولئك المنافقون الذين لم يؤمنوا بالله ورسوله ﷺ واليوم الآخر، والذين في إيمانهم دخن وفي قلوبهم شك ونفاق، والشَّاكّون في صحة ما أُنزل عليك من الإسلام والشرائع، ولا زالوا مستمرين في شكِّهم وحيرتهم ومترددين في أمر الخروج والقعود.

[٤٦] ثم قال جل وعلا: لو أحب هؤلاء المنافقون الخروج معك يارسول الله للجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الله، لاستعدوا وتهيؤوا وعملوا ما يمكنهم من الأسباب للخروج، ولكنه سبحانه ما أحب خروجهم معك بسبب نفاقهم؛ فأعاقهم عن الخروج، وقيل لهم: تخلفوا مع القاعدين من المرضىٰ والضعفاء والنساء والصبيان.

[٤٧] ثم بين جل وعلا لرسوله ﷺ وللمؤمنين أن تخلفهم كان من صالح المسلمين الصادقين، فقال: لو ذهبوا معكم ما زادوكم إلا ضررًا وفشلًا وهزيمة، ولأفسدوا بينكم بالنميمة والبغضاء، واعلموا أيها المؤمنون أن فيكم أناسًا ضعاف النفوس ينصتون لشكوكهم وافتراءاتهم، كما قال المنافقون في غزوة بدر: ﴿غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ [الأنفال:٤٩]، والله عليم بالمنافقين الظالمين وسيجازيهم علىٰ أعمالهم.

لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ
جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنۡهُم
مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ
جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبۡكَ
حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ
أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل
لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى
ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ
إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ
بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم
مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ
مِنكُمۡۖ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا
مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ
بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ
كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾

[٤٨] واعلموا أن هؤلاء المنافقين أرادوا فتنة المؤمنين وصدهم عن دينهم، وتفريق كلمتهم من أول الأمر حين الهجرة إلىٰ المدينة، وقبل هذه الغزوة بكثير، حين فعلوا ما فعلوا في أُحُد وفي الخندق، وغيرها، وأخذوا يصرفون الأمور ويكيدون ويخدعون، حتىٰ نصر الله عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، فبطل كيدهم، وضل سعيهم، وهم كارهون لرفعة هذا الدين، ولانتصار المؤمنين.

[٤٩] ثم أخبر جل وعلا أن من هؤلاء المنافقين من يستأذنك يانبي الله في التخلف عن الجهاد، ويبرر ذلك بحجة واهية قائلًا: إني أخشىٰ إن خرجت معك أن أفتتن بنساء بني الأصفر، فَأْذَنْ لي بالقعود حفاظًا علىٰ ديني، وطلبًا لسلامتي، والحقيقة: أنهم بتخلفهم عن الجهاد، ومعصيتهم للرسول ﷺ قد سقطوا في فتنة النفاق الكبرىٰ، وليعلموا أن النَّار محيطة بمن كفر بالله واليوم الآخر؛ لا يستطيع منها هربًا، ولا يجد سبيلًا للخلاص.

[٥٠] واعلم يانبي الله أن هؤلاء المنافقين يبغضونك ويبغضون دينك، لذا؛ إن حصل لك سرور ونصر وتمكين؛ حزنوا وأصابهم الهم والغم، وإن حصل لك حزن وأصابك مكروه من جراحات وشدة، وقتل في سبيل الله؛ يقولون: نحن قد احتطنا لأنفسنا ونجونا من هذا الهلاك بتخلفنا وقعودنا، وينصرفون مسرورين بما أصاب المؤمنين، فرحين بعدم مشاركتهم.

[٥١] وقل يانبي الله لهؤلاء المنافقين: لن يصيبنا أي شيء إلا بقضاء الله وقدره، ونحن قد امتثلنا ما أُمرنا به، والله ناصرنا ومتولينا، فنحن نعتمد عليه، ونفوض أمرنا إليه.

وفي قوله: ﴿مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾، أي: ما كتب لصالحنا، ولذا لم يقل جل وعلا: ما كتب الله علينا.

[٥٢] وقل لهم يانبي الله: هل تنتظرون بنا إلا أن يكرمنا الله بإحدىٰ خصلتين حسَنَتَيْن: إما النصر وظهور الدين والعز والتمكين، وإما الشهادة التي هي أرفع وأسمىٰ مراتب العبادة؟، وكلا الخصلتين نافع لنا غاية النفع، وحسَن لدينا غايةَ الحُسْن، أما أنتم فنحن ننتظر لكم أسوأ العقوبتين، وإحدىٰ السوأتين: إما أن يهلككم الله بعذاب من عنده، أو يسلطنا عليكم، ويكون عذابكم وقتلكم علىٰ أيدينا، فانتظروا تحقق ما أخبرناكم به، فإنا معكم منتظرون.

[٥٣] وقل يانبي الله لهؤلاء المنافقين: إن نفقاتكم -راضين أو ساخطين-؛ مردودة عليكم، وغير مقبولة منكم، ذلكم أنكم خرجتم عن دين الله وطاعته.

[٥٤] واعلموا أن هناك أسبابًا حالت بين المنافقين وبين قبول نفقاتهم، وهي: أنهم كفروا بالله ورسوله، -والإيمان شرط في قبول العمل الصالح-، ثم أنهم لا يأتون الصلاة إلا وهم متثاقلون عنها، ثم أنهم لا ينفقون إلا بضيق صدر، وكره شديد للإنفاق؛ لأنهم لا يرجون ثوابًا ولا يخافون عقابًا.

فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم
بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ
٥٥ وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ
قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ٥٦ لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـَٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا
لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ ٥٧ وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي
ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا
هُمۡ يَسۡخَطُونَ ٥٨ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ
وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ
إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ٥٩ ۞إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ
وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ
وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ
مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠ وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ
ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ
بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ
مِنكُمۡۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦١

[٥٥] يوجه جل وعلا نبيه ﷺ أن لا يستحسن ما لدىٰ المنافقين من أموال أو أولاد؛ ذلك أن هذه الأموال والأولاد سبب لشقائهم في الدنيا -بتعبهم في تحصيلها وتعلق قلوبهم بها-، وفي الآخرة لتركهم مراعاة حق الله فيها، ثم إن من أعظم العقوبات وأكبر المصائب أن تخرج نفوسهم، وتأتيهم منيتهم، وهم قائمون علىٰ الكفر بالله وتكذيب رسوله ﷺ.

[٥٦] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء المنافقين يحلفون بالله الأيمان المغلظة كذبًا وزورًا -وهذه صفة لازمة لهم- أنهم منكم ومعكم، وحقيقة الأمر: أنهم كاذبون، وأنهم ليسوا معكم، وحلفهم الكاذب هذا بسبب خوفهم علىٰ أنفسهم منكم، ومن ملاقاة الأعداء، فالخوف والفزع والهلع صفات لازمة لهم.

[٥٧] ثم أكد جل وعلا علىٰ جبن هؤلاء المنافقين؛ حيث أخبر أنهم لو يجدون ملجأ يلجؤون إليه، أو كهوفًا في الجبال يختفون فيها، أو أنفاقًا تحت الأرض يسترون فيها هربًا منكم ومن النفير للجهاد؛ لانصرفوا إليها مسرعين لا يلوون علىٰ شيء.

[٥٨] ثم أخبر جل وعلا أن من هؤلاء المنافقين من يعيبك في تقسيم الصدقات يانبي الله، فإذا أعطيتهم منها ما يرضيهم رضوا وسكتوا وأثنوا عليك، وإن لم تعطهم ما يطمعون فيه؛ سخطوا وتذمروا وأظهروا عدم الرضا؛ ذلك أنهم يتبعون أهواءَهم، ويميلون مع حظوظ أنفسهم الدنيئة الدنيوية.

[٥٩] ثم بين جل وعلا المنهج الصحيح الذي كان يجب أن يتبعه هؤلاء المنافقون؛ حيث قال سبحانه: لو أن هؤلاء المنافقين قنعوا ورضوا بما قُسم لهم، وأوكلوا أمرهم إلىٰ الله بقولهم: الله كافينا، وسيرزقنا ويوسع علينا من فضله العظيم، فنحن نطمع في كرمه وإحسانه سبحانه وتعالىٰ؛ لكان خيرًا لهم، وأنفع وأجدىٰ، لكنهم غير راغبين فيما عند الله.

[٦٠] ثم ذكر جل وعلا مصارف الزكاة التي لا تُصرف إلا لهؤلاء الثمانية المذكورين، وهي ليست مثل الصدقات المطلقة العامة التي مصارفها كل ما أريد به وجه الله؛ فالفقراء هم الذين لا يملكون شيئًا، والمساكين هم الذين لا يملكون نصف ما يكفيهم، والعاملون عليها هم الذين يقومون علىٰ جمع الزكاة وإدارة شؤونها، والمؤلفة قلوبهم هم الذين يُرجىٰ إسلامهم، أو دفع شرهم، وفي الرقاب هم الذين اشتروا أنفسهم من سادتهم فَيُسَاعَدُونَ لفك رقابهم، والغارمون هم أصحاب الديون العاجزون عن الوفاء، والذين تحملوا غرامات الإصلاح بين المتخاصمين والمتحاربين، وفي سبيل الله هم المجاهدون، ويدخل فيهم الذين تفرغوا لطلب العلم، والدعوة إلىٰ الله، وابن السبيل هو المسافر الذي انقطعت به النفقة حتىٰ ولو كان غنيًّا في بلاده، واعلموا أن هذه الزكاة فريضة من الله أوجبها علىٰ المسلمين وقدّر مقاديرها موضحة بالسنة، والله عليم بما تصلح به أمور عباده، حكيم في تدبيره وشرعه.

[٦١] يخبر جل وعلا أن المنافقين أرادوا ذم النبي ﷺ فقالوا: إنه يستمع لكل ما يقال له من المستفتين والمشتكين والشاكين والناصحين فيصدقهم، وأنه لم يجعل بينه وبين الناس حرَّاسًا، ولكون هذا الكلام يؤذي النبي ﷺ أبطل الله كيدهم، وبيّن أنها صفة مدح فيه ﷺ، ولذا أجاب عنه بقوله: ﴿قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ﴾، أي: أن يسمع العذر ويصدقه خير من أن يقطب الجبين؛ كما قال سبحانه في صفته: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وليس المقصود في قوله: ﴿هُوَ أُذُنٞ﴾: النميمة؛ بمعنىٰ أن النبي ﷺ يستمع لأصحاب النميمة وهم ينقلون له كلامًا عن بعضهم البعض، فكيف يكون هذا هو المعنىٰ وهو ﷺ قد حذر أصحابه من النميمة ومن خطرها، فقال ﷺ: «**لا يدخل الجنة نمام**»(١).

ثم مدح سبحانه نبيه ﷺ وبين أنه يصدق بالله وكتابه، وأنه يصدق المؤمنين فيما يخبرونه، وأنه رحمه للذين آمنوا بالله ورسوله منكم، ثم اعلموا أن الذين يؤذون النبي ﷺ بأي نوع من أنواع الأذىٰ لهم عذاب مؤلم وموجع في جهنم.

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٨).

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ
أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن
يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا
ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن
تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا
إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ
لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ
وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم
بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً
بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ
بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ
إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ
وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ
حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾

[٦٢] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء المنافقين يحلفون لكم الأيمان الكاذبة متبرئين مما صدر منهم من أذية، مستجلبين رضاكم أيها المؤمنون، متغافلين عن حق الله ورسوله ﷺ، وأن إرضاء الله أولىٰ من إرضاء أي إنسان، وهذا دليل علىٰ جهلهم وانتفاء إيمانهم.

[٦٣] ثم أنكر جل وعلا علىٰ هؤلاء المنافقين، فقال سبحانه: ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن من يشاقق الله ورسوله بمخالفة أوامر الله؛ أن له عذابًا شديدًا موجعًا دائمًا في نار جهنم؟! وإن هذا لهو الذل العظيم، والهوان المبين.

[٦٤] يخبر جل وعلا عن حال المنافقين وخوفهم من أن ينزِّل الله سورة علىٰ نبيه ﷺ تفضحهم وتهتك أسرارهم، وتبين حقيقة ما يبطنون ويعتقدون، فقل لهم يانبي الله: استمروا في استهزائكم وسخريتكم، ولكن اعلموا أن الله مظهرٌ ما تكتمون، ومبيِّن ما تخفون، وقد حصل ذلك بإنزال هذه السورة التي فضحتهم وهتكت أستارهم، ويظهر ذلك في هذه الآية وما بعدها من الآيات.

[٦٥] ثم بين جل وعلا لونًا آخر من معاذيرهم الكاذبة، فقال سبحانه: لئن سألت يانبي الله هؤلاء المنافقين عن استهزائهم بالإسلام وطعنهم فيك وفي أصحابك -بقولهم: (لم نر مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا وأجبن عند اللقاء) في غزوة تبوك وغيرها-؛ ليكونن جوابهم: إنما كنا نمزح ونقطع عناء الطريق، ولم نكن نقصد حقيقة ما تفوهنا به، ونحن نعتذر أشدَّ الاعتذار عما بدر منا، فقل لهم يانبي الله: أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون؟!!

[٦٦] ثم أكد جل وعلا بطلان عذر هؤلاء المنافقين، فقال سبحانه: لا تعتذروا أيها المنافقون، فإن عذركم غير مقبول، فقد اتضح كفركم -بهذا الاستهزاء-، وبان نفاقكم بعدما كنتم تبطنونه وتظهرون الإيمان، فإن نعفُ عن فئة منكم تابت حقًّا واستغفرت وندمت، ورجعت للإسلام، وأخلصت في ذلك؛ نعذب فئة أخرىٰ بسبب إجرامهم وإصرارهم علىٰ كفرهم ونفاقهم.

[٦٧] ثم أخبر جل وعلا عن بعض صفات المنافقين، ومن ذلك: أنهم -ذكورًا وإناثًا- يتولىٰ بعضهم بعضًا، وأنهم مشتركون في إظهار الإسلام وإبطان الكفر.

ومن صفاتهم: أنهم يأمرون بالمنكر والكفر والفسوق والعصيان، وينهون عن المعروف والطاعة والإيمان.

ومن صفاتهم: شحُّهم وبخلُهم وإمساكهم وبغضهم للنفقة والصدقة.

ثم هم مع ذلك قد نسوا الله فلا يذكرونه إلا نادرًا، ونسوا طاعته وتقواه؛ فجازاهم الله من جنس عملهم بأن نسيهم، أي: تركهم وأبعدهم من رحمته فلا يوفقهم لخير في الدنيا، ولا ينجيهم من العذاب في الآخرة، واعلموا أن المنافقين هم الخارجون عن طاعة الرحمن والإيمان به، وهم في الدرك الأسفل من النار، كما أخبر بذلك سبحانه في قوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء:١٤٥].

[٦٨] ثم وعد جل وعلا المنافقين والمنافقات والكفار أن يجتمعوا في نار جهنم، وألا يخرجوا منها أبدًا، وهذه النار هي عقاب لهم، وأنهم فيها مُبعَدون ومطرودون من رحمة الله، فلا أمل في الخروج منها؛ وهم فيها ماكثون مقيمون أبد الآبدين؛ ومن شدة العذاب أنهم يشعرون بالموت ويأتيهم من كل جزء من أجزاء أجسامهم ويتمنُّون ذلك ولكنهم لا يموتون زيادة لهم في العذاب.

كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا
وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ
كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ
كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا
وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٩ أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ
نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ
إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم
بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ
أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٧٠ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ
أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ
وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ
٧١ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا
ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ
وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢

[٦٩] يحذِّر جل وعلا المنافقين من أن يصيبهم ما أصاب الأمم السابقة التي كذبت برسلها، مع أن تلك الأمم كانت أشد منهم قوة وأكثر أموالًا وأولادًا، وتمتعوا بكل شهوات الدنيا وملذاتها، وأنتم أيضًا تمتعتم بشهوات الدنيا كما تمتعوا، وخضتم في المعاصي والباطل والكفر والكذب علىٰ الله كما فعل أولئك، فاعلموا أن أولئك الذين كانت هذه أوصافهم قد بطلت أعمالهم في الدنيا والآخرة، وأولئك هم الخاسرون بتفضيلهم نعيم الدنيا الزائل علىٰ نعيم الآخرة الدائم فاحذروا أيها المنافقون ويا أيها المؤمنون مصير هؤلاء المجرمين.

[٧٠] ثم ساق جل وعلا لهؤلاء المنافقين – علىٰ سبيل الاتعاظ والتذكير – بعض أخبار وأحوال الأمم السابقة وما حصل لهم من العذاب الشديد، بسبب كفرهم وجحودهم، فقال سبحانه: ألم تأتِ هؤلاء المنافقين أخبار الأمم السابقة الذين كذبوا رسلهم، ولم يؤمنوا بهم فأهلكهم الله؟!؛ كقوم نوح الذين أُهلكوا بالغرق!، وعاد الذين أهلكوا بالريح!، وثمود الذين أُهلكوا بالصيحة!، وقوم إبراهيم الذين سلبهم الله النعم، وأحل بهم النقم!، وأصحاب مدين – وهم قوم شعيب – الذين أهلكهم الله بالرجفة!، وقوم لوط – وهم سكان سدوم – الذين أهلكهم الله بالحجارة وبقلب قراهم!!، فهؤلاء جميعًا جاءتهم أنبياء الله ورسلهم بالآيات الواضحات، والدلائل الظاهرات علىٰ وحدانية الله جل وعلا؛ فكذبوهم ولم يؤمنوا بهم، فأهلكهم الله بسبب تكذيبهم لرسلهم، وجحدهم لآيات ربهم، وما ظلمهم الله شيئًا، ولكن هم الظالمون لأنفسهم بتكذيبهم وعنادهم وإصرارهم علىٰ كفرهم.

[٧١] وحيث إن القرآن وُصف أنه مثاني، أي: يذكر الأمر ثم يذكر ما يقابله؛ فبعد أن أخبر جل وعلا عن بعض صفات المنافقين؛ أخبر سبحانه عن بعض صفات المؤمنين –ذكورًا وإناثًا–، ومن ذلك: أنهم يتولىٰ بعضهم بعضًا في المحبة والموالاة والنصرة والتأييد.

ومن صفاتهم: أنهم يأمرون أنفسهم وغيرهم بكل معروف حسَن من العقائد والأعمال والأخلاق، وينهون عن ضد ذلك من العقائد الباطلة، والأعمال السيئة، والأخلاق الرذيلة.

ومن صفاتهم: أنهم يقيمون الصلاة إقامة حسنة بخلاف المنافقين الذين لا يأتون إلىٰ الصلاة إلا وهم كُسالىٰ.

ومن صفاتهم: أنهم يعطون الزكاة والنفقة لمستحقيها بخلاف المنافقين الذين يقبضون أيديهم، وهم مع ذلك ملازمون لطاعة الله ورسوله فيما أُمروا بفعله، وفيما نُهوا عنه.

واعلموا أن أولئك المتصفين بهذه الصفات سيدخلهم الله في رحمته، وينجيهم من عذابه، إن الله عزيز في ملكه، غالب قوي قاهر، ومع قوته سبحانه فهو حكيم يضع الشيء في موضعه اللائق به، سبحانه وتعالىٰ.

[٧٢] ثم أخبر جل وعلا بما أعد لعباده المؤمنين – ذكورًا وإناثًا –، فقد وعدهم الله بجنات تنبع من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، ماكثين في هذه الجنات أبدًا لا يخرجون منها، ولا يتحولون عنها، ولهم – أيضًا – مساكن حسنة جميلة مزخرفة، – تطيب نفوسهم بالنظر إليها –، كل ذلك في دار إقامة لا فناء فيها، ولا تحوّل عنها، ثم يحل الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ أهل الجنة رضاه، وهذا أكبر من كل ما أُعطوا، ومن جميع ما أوتوا، فأعظم نعيم أهل الجنة علىٰ الإطلاق: رؤية الكريم الرحمن، ورضاه عنهم، وذلك هو الفوز العظيم –الذي لا يعادله فوز–، والفلاح الكبير –الذي لا يعادله فلاح–، نسأل الله الكريم من فضله ورحمته أن يجعلنا والمسلمين منهم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ
وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟
وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟
بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ
مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ
ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ * وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا
مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم
مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ
بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾
أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ
عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ
فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

[٧٣] وهذا أمر من الله جل وعلا لنبيه ﷺ أن يبالغ في جهاد الكفار والمنافقين، وأن يُشَدِّد عليهم، ويريهم الخشونة والقسوة، وذلك بالقتال بالسيوف والسنان، وبالحجة والبيان، هكذا تكون معاملتهم في الدنيا، أما في الآخرة فإن مقرهم الذي يمكثون فيه ولا يخرجون منه هو نار جهنم، وبئس المقر والمستقر إن لم يؤمنوا.

وهذا خاصٌّ بالمعاندين، أما المسالمون فَيُدْعَوْنَ بالَّتي هي أحسن.

[٧٤] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء المنافقين يحلفون أنهم ما أساؤوا إليك يارسول الله وإلىٰ المؤمنين أبدًا، وقد كذبهم سبحانه وفضحهم، وبين أنهم قالوا كلمة الكفر التي أخرجتهم من الإسلام، وأن بعض المنافقين همُّوا بقتل الرسول ﷺ عند عودته من غزوة تبوك؛ فَأَعْلَمَ الله رسوله بخطتهم وأفشلها، وما عاب هؤلاء المنافقون علىٰ رسول الله وعلىٰ المؤمنين إلا أن الله أغناهم بعد فقر بما تفضل عليهم من الغنائم، فإن يتوب المنافقون والكفار ويرجعوا إلىٰ الإيمان فهو خير لهم، وإذا أصروا واستمروا علىٰ كفرهم ونفاقهم وعنادهم فإن الله سوف يعذبهم عذابًا موجعًا شديدًا في الدنيا علىٰ أيدي المؤمنين وفي الآخرة بنار جهنم، وليس لهم ولي يحفظهم أو ينفعهم، ولا نصير يدفع عنهم العذاب.

[٧٥] ثم أخبر جل وعلا أن من هؤلاء المنافقين صنف كانوا من الفقراء، فأعطوا الله العهد والميثاق لئن أعطاهم الله المال، وأغناهم؛ لَيُنْفِقُنَّهُ في وجوه الخير من صلة وصدقة وبر، وليكونن من عباد الله الصالحين.

[٧٦] ثم أخبر جل وعلا أنه بعد أن أعطاهم المال وأغناهم؛ نقضوا عهدهم، وأخلفوا وعدهم، وبخلوا به، وأمسكوه، ولم يؤدوا حقّه، ولم ينفقوه في وجوه الخير؛ بل تولوا عما تعهدوا به، وانصرفوا معرضين عن أوامر الإسلام والحق والخير؛ بل إن أحدهم منع الزكاة وقال: إنها أخت الجزية.

[٧٧] فكان جزاء إخلافهم للوعد: أنْ أخلفهم الله نفاقًا مستمرًّا مستقرًّا في قلوبهم، لا يستطيعون دفعه، ولا التخلص منه إلىٰ أن يلقوا الله سبحانه وتعالىٰ، وذلك بسبب نفاقهم وإخلافهم للوعد وكذبهم.

[٧٨] ثم بين جل وعلا لهؤلاء المنافقون أنه يعلم السر وما أخفىٰ، فقال سبحانه: ألم يعلم هؤلاء المنافقين أن الله يعلم ما يخفون في صدورهم من إضمار لإخلاف الوعد، ومن نفاق!، ويعلم ما يتحدثون به سرًّا مع بعضهم البعض من انتقاص وتكذيب، ومن كيد للإسلام وأهله! ألم يعلموا أن الله علام للغيوب!! وأنه لا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء!، وأنه سبحانه سيجازيهم علىٰ كل ما عملوا!.

[٧٩] ولم يكتفِ هؤلاء المنافقون بإخلافهم للوعد، وببخلهم وشحهم؛ بل أخذوا يلمزون ويهزؤون ويعيبون المتصدقين ويؤذونهم، فإذا تصدق غني بمال كثير، قالوا: ما فعل هذا إلا رياء، وإذا تصدق فقير بمال قليل -حسب طاقته-، قالوا باستهزاء وسخرية: إن الله غني عن صدقة هذا، فكان جزاؤهم -من جنس جريمتهم- أن سَخِرَ الله منهم بأنْ أهانهم وأذلهم في الدنيا، ولهم العذاب الأليم الموجع الدائم في الآخرة.

ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً
فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ
وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ
خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ
لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ
بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ
مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن
تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ
مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ
عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ
﴿٨٤﴾ وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم
بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ
أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ
أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾

[٨٠] ثم أخبر جل وعلا نبيه ﷺ أن استغفاره لهؤلاء المنافقين أو عدمه سواء، فمهما بالغت يانبي الله في الاستغفار لهم فإن الله لن يغفر لهم، واعلم أن ذلك الحكم الذي ذكره الله بعدم مغفرة ذنوبهم سببه أنهم كفروا بالله ورسوله ﷺ؛ بل وأعظم من ذلك أنهم وقعوا في النفاق وهو أعظم من الكفر، فلا ينفع معه استغفار ولا إنفاق، والله لا يوفق للهداية قومًا خرجوا عن طاعته وتمردوا علىٰ أمره، وردوا الحق الواضح البين.

[٨١] يخبر جل وعلا أن بعض المنافقين استأذن رسول الله ﷺ للقعود عن الجهاد والجلوس في المدينة - بلا عذر إلا لنفاقهم، وكرههم للجهاد بالمال والنفس - فأذن لهم، ففرحوا وسُرُّوا بهذا القعود، ولم يكتفوا بذلك؛ بل قاموا بتثبيط غيرهم، قائلين: لا تنفروا في هذا الحر الشديد، فقل لهم أيها الرسول: إن حرارة جهنم أشد وأبقىٰ من هذا الحر الذي فررتم منه، لو كنتم تفهمون.

[٨٢] ثم توعد جل وعلا المنافقين وعيدًا شديدًا علىٰ ما اقترفوا من الموبقات والآثام، فقال سبحانه: فليضحكوا ملء أفواههم، وليفرحوا بتخلفهم عن الجهاد، وبُعدهم عن الحر قليلًا في هذه الحياة الدنيا، ثم ليبكوا طويلًا في الآخرة، في نار جهنم الحارة حقًّا، وليمكثوا فيها لا يخرجون منها أبدًا، جزاء ما قدموا، ونظير ما صنعوا، وهذا جزاء ما اكتسبوا.

[٨٣] ثم بين جل وعلا ما يجب علىٰ نبيه ﷺ نحو هؤلاء المنافقين الذين تخلفوا عن الجهاد كرهًا له، فقال سبحانه: فإن ردك الله يانبي الله من هذه الغزوة إلىٰ جماعة من المنافقين الذين تخلفوا من غير عذر، وفرحوا بهذا التخلف، فاستأذنوك للخروج معك ومرافقتك إلىٰ غزوة أخرىٰ، فلا تسمح لهم بذلك تصغيرًا لشأنهم وتبكيتًا لهم، وقل لهم عقوبةً لهم: لن تصحبوني أبدًا، ولن تقاتلوا معي عدوًّا أبدًا، فسيُغني الله عنكم، وعن خروجكم، فإنكم قد رضيتم واطمأنت نفوسكم للقعود أول مرة، فَاسْتَمِرُوا علىٰ قعودكم، وابقوا في بيوتكم مع الخالفين من النساء والصبيان، لينالكم الذل والعار في الدنيا، والعذاب الشديد في الآخرة.

[٨٤] وبعد أن حكىٰ جل وعلا ما اتصف به المنافقون من منكرات نهىٰ رسوله ﷺ عن الصلاة عليهم، والدعاء لهم، وتشييع جنائزهم؛ لأنهم كفروا بالله وبرسوله، وماتوا وهم خارجون عن طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ.

[٨٥] ثم أخبر جل وعلا نبيه ﷺ أن لا يغتر بما أعطاهم الله من الأموال والأولاد، فإنها ستكون وبالًا وحسرة عليهم في الدنيا بمكابدة الشدائد والمشاق في تحصيلها، ثم يموتون علىٰ الكفر وأنفسهم متعلقة بهذه الأموال.

[٨٦] وفي استمرار الحديث عن المنافقين يبين جل وعلا أنه إذا أُنزلت سورة علىٰ النبي ﷺ تأمر بالإيمان بالله ورسوله ﷺ، وتأمر بالجهاد مع الرسول ﷺ؛ استأذن أصحاب الأموال الذين منَّ الله عليهم بالمال والأولاد، وقالوا: اتركنا يارسول الله نقعد مع أهل الأعذار من الصبيان والعجزة والنساء، وهذا يدل علىٰ جبنهم وخورهم وكسلهم وفشلهم، وشكِّهم في البعث والجزاء للشهداء؛ إذ لو آمنوا حقًّا لما تخلفوا.

رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ
لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ
جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ
وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾
وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ
كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ
لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ
مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾
وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ
مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ
حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى
ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟
مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

[٨٧] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء المنافقين الذين استأذنوا النبي ﷺ رضوا بأن يقعدوا مع الخوالف أصحاب الأعذار، وفضلوا الحياة الدنيا علىٰ الآخرة؛ فختم الله علىٰ قلوبهم لإصرارهم علىٰ النفاق والكفر، فلا يصل الحق إليها أبدًا، وبسبب تخلفهم عن الجهاد في سبيل الله والخروج مع الرسول ﷺ، فهم لا يفهمون مصالحهم وما ينفعهم أو يضرهم.

[٨٨] وبعد أن بين جل وعلا عن حال المنافقين مع رسول الله ﷺ؛ أخبر سبحانه عن حال الصحابة معه ﷺ؛ حيث أخبر أنهم جاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم؛ وفي هذا حث لهم علىٰ الإخلاص وتصحيح العبادة لله والجهاد مع رسول الله ﷺ، وأن لا يكونوا مثل الذين استأذنوك في التخلف مع أنهم لا عذر لهم؛ فعندهم العدة والمراكب وهم أصحاء؛ بل إن بعضهم يتسلل من غير استئذان، ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء الذين آمنوا بالله ورسوله، وجاهدوا بأنفسهم وأموالهم لهم الخيرات التي تسر نفوسهم في الدنيا، وهم المفلحون الفائزون برضوان الله في الآخرة

[٨٩] ثم أخبر جل وعلا أنه أعد لهؤلاء المفلحين الفائزين في الآخرة جنات تجري الأنهار من تحت قصورها وأشجارها، ماكثين فيها أبدًا، وهذا هو الفوز والفلاح الحقيقي الكامل.

[٩٠] يخبر جل وعلا أنه جاء إلىٰ النبي ﷺ جماعة من الأعراب يعتذرون، ويستأذنون في التخلف عن الجهاد، وجلست جماعة أخرىٰ من منافقي العرب كانت قد تخلفت عن الجهاد بلا عذر، وهؤلاء قد كذبوا في ادعائهم الإيمان أصلًا، وسيصيبهم العذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

[٩١] ثم بين جل وعلا أصحاب الأعذار الحقيقية المباح لهم القعود والتخلف عن الجهاد، وهم: الضعفاء من النساء والصبيان، والمرضىٰ مرضًا لا يستطيعون معه الجهاد، وأيضًا: الذين لا زاد لهم ولا راحلة، ولا يملكون ما يتجهزون به للخروج؛ فهؤلاء ليس عليهم إثم ولا حرج بشرط أن ينصحوا لله ولرسوله ﷺ وأن تكون نياتهم أنهم لو قدروا لجاهدوا، وعليهم أن يفعلوا ما بوسعهم من العمل بالشريعة، والتحريض علىٰ الجهاد، فإنه ما علىٰ المحسنين الصادقين المعذورين من طريق لمعاتبتهم أو معاقبتهم ، والله غفور رحيم بعباده، ومن ذلك: عفوه عن العاجزين جسديًّا وماليًّا.

[٩٢] ثم بين جل وعلا لنبيه ﷺ صنفًا آخر من أهل الأعذار الصادقين، وهم الذين جاؤوا يطلبون ما يركبون من الدواب، ويطلبون الزاد للجهاد مع رسول الله ﷺ، فأجابهم معتذرًا: لا أجد ما أحملكم عليه، فكان من حالهم أن انصرفوا عنك وقد فاضت أعينهم من الدموع أسفًا وحزنًا وحسرة علىٰ ما فاتهم من شرف المشاركة في الجهاد، بسبب انعدام ما يبلغهم مقصودهم.

[٩٣] ثم بين جل وعلا أن طريق اللوم والمؤاخذة والمعاقبة يتوجه للذين جاؤوا يستأذنون للتخلف عن الجهاد وهم أغنياء المنافقين الذين يجدون ما يتجهزون به، وهؤلاء لحقارتهم ومهانتهم رضوا لأنفسهم أن يتركوا رسول الله ﷺ، وأن يقعدوا مع أهل الأعذار ومع النساء والصبيان في البيوت، ثم أخبر سبحانه أنه ختم علىٰ قلوب أولئك بالنفاق، فلا يدخلها إيمان ولا خير، ولا يعلمون ما فيه ربحهم، ولا يعلمون سوء عاقبتهم؛ فباؤوا بالخسران العظيم.

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا
لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى
ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ
لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟
عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟
يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن
تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ
﴿٩٦﴾ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ
مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ
ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ
ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ
ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ
قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ
سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

[٩٤] يخبر جل علا عباده المؤمنين، أنهم إذا رجعوا من غزوتهم، فإن المنافقين سوف يبدون لهم الأعذار الكاذبة لتخلفهم وقعودهم، ثم يأمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقول لهم: لا تعتذروا فلن نصدقكم فيما تقولون؛ لأن الله قد أخبرنا بحقيقة حالكم، وبما تخفون من نفاقكم، وسيرىٰ الله عملكم ورسوله، لأن العمل هو الميزان، وبه يتضح هل تبتم من نفاقكم وأخلصتم؟ أم أنكم مصرّون علىٰ عنادكم ونفاقكم؟ وبعد ذلك سترجعون إلىٰ من لا تخفىٰ عليه خافية فيخبركم بأعمالكم، ويجازيكم عليها.

[٩٥] ثم يخبر جل وعلا نبيه ﷺ والمؤمنين أنهم إذا رجعوا إلىٰ المدينة فإن المنافقين سيحلفون لهم بالله -الأيمان الكاذبة- معتذرين عن تخلفهم حتىٰ يُتركوا دون مساءلة أو لوم أو توبيخ، فاتركوهم واهجروهم واجتنبوهم تحقيرًا لشأنهم؛ فإنهم قذر، خبثاء، ومصيرهم ومكانهم اللائق بهم في الآخرة نار جهنم، بسبب أعمالهم الخبيثة، وبسبب ما اقترفوا من الآثام والنفاق.

[٩٦] ثم يخبر جل وعلا أن كثرة الحلف من صفات المنافقين، ولذلك فإنهم سيحلفون لكم أيها المؤمنون لغرض جديد، غير الأغراض السابقة، وهو أن ترضوا عنهم كأنهم لم يفعلوا شيئًا، فاحذروا ذلك أيها المؤمنون، فإن الله لم يرض عنهم، وعليكم موافقة ربكم في رضاه وغضبه، وهؤلاء قام بهم مانع من رضىٰ الله، وهو كونهم مستمرين علىٰ الفسق، والخروج عن طاعة الله وأمره.

[٩٧] ثم أخبر جل وعلا أن الأعراب وهم سكان البادية والبراري؛ أنهم أشد كفرًا ونفاقًا من غيرهم، وذلك لجفائهم وغلظ أخلاقهم، ولبعدهم عن سماع كتاب الله وما جاءت به الرسل، فهم لذلك أحق ألا يعلموا حدود الدين، وما أنزل الله من الشرائع والأحكام، والله عليم بخلقه، حكيم في شرعه، وفي تدبير أمور عباده.

[٩٨] ثم أخبر جل وعلا أن بعض هؤلاء الأعراب يجعل ما ينفقه في الزكاة أو الجهاد في سبيل الله غرامة وخسارة ونقصًا؛ لأنه لا يحتسب فيها، وذلك لنفاقه وعدم قرار الإيمان في قلبه؛ بل وينتظر أن تحل بالمسلمين الدواهي والمصائب والآفات حتىٰ يمنع هذه النفقات، وهذا سينعكس عليهم، بأن ينقلب حالهم وتدور عليهم دائرة الهزيمة والشر والعذاب والبلاء والمكروه، والله سميع لما يقولونه، عليم بنيات العباد، وما يضمرونه.

[٩٩] ثم ذكر جل وعلا صنفًا ثانيًا من الأعراب محمودًا ممدوحًا، وهم الذين يؤمنون بالله ويصدقون باليوم الآخر، والجزاء والحساب، وهؤلاء يحتسبون نفقاتهم في الجهاد والزكاة وغيرها لوجه الله، ويتقربون بها إلىٰ الله، ويجعلونها وسيلة ينالون بها دعاء الرسول ﷺ واستغفاره لهم، فهذا مقبول منهم، ودعاء الرسول نافع لهم، فهم داخلون في رحمة الله وجنته، والله غفور يغفر سيئات من تاب، رحيم وسعت رحمته كل شيء.

وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ
ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ
لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ
ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ
مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ
نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ
عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا
وَءَاخَرَ سَيِّئًا ۗ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ
إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ
ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ
ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ
وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ
إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

[١٠٠] يبشر جل وعلا طوائف من عباده ببشريات عظيمة، وفي مقدمة هؤلاء: السابقون الذين سبقوا غيرهم إلىٰ الإيمان والهجرة والجهاد والنصرة، ومنهم المهاجرون الذين تركوا قومهم ووطنهم ومالهم ابتغاء مرضات الله، ومنهم الأنصار الذين آووا ونصروا رسول الله والمؤمنين، وآثروهم علىٰ أنفسهم، وهذه البشرىٰ تشمل أيضًا من اتبعوهم بإحسان في الاعتقادات والأقوال والأعمال الصالحة ممن جاء بعدهم إلىٰ يوم القيامة، تلك الطوائف: رضي الله عنهم، وتقبل منهم، وتجاوز عنهم -وهذا أعظم نعيم أهل الجنة-، وَرَضُوْا عَنْهُ بما حباهم من فضله، وأعطاهم من كرمه، وفوق ذلك: هيأ لهم جنات فيها قصور فخمة وأشجار جميلة تجري تحتها الأنهار، وهم ماكثون فيها أبدًا، وذلك هو الفلاح العظيم.

[١٠١] يخبر جل وعلا رسوله ﷺ وعباده المؤمنين أن المدينة النبوية حولها منافقون من الأعراب، وأيضًا في المدينة نفسها منافقون تمرسوا علىٰ النفاق ومهروا فيه، لدرجة أنك لا تعرفهم يانبي الله، وهذا لا يضر، فالله يعرفهم، وسينالون العذاب الشديد مرتين، وذلك: بفضيحتهم وبمصائب تصيبهم في أنفسهم وأهليهم في الدنيا، ويعذبون عند سكرات الموت وفي قبورهم، ثم يوم القيامة يردون إلىٰ العذاب العظيم في الدرك الأسفل من نار جهنم.

[١٠٢] ثم يخبر جل وعلا عن طائفة أخرىٰ من المدينة وممن حولها، خلطوا عملهم الصالح من إيمان وهجرة وجهاد، بعمل آخر سيِّيء من تخلفٍ عن هذه الغزوة بدون عذر، ثم ندموا علىٰ ذلك أشد الندم واستغفروا وتابوا، فهؤلاء عسىٰ الله أن يتقبل منهم توبتهم، إن الله غفور يغفر ذنب من تاب ورجع، رحيم بعباده، وسعت رحمته كل شيء.

[١٠٣] يأمر جل وعلا رسوله ﷺ أن يأخذ من أموال هؤلاء التائبين الزكاة المفروضة إذْ بها تَطْهُر نفوسهم من دنس الذنوب، وبها يزداد ثوابهم وتنمىٰ أموالهم، وادع لهم يامحمد بعد ذلك، واستغفر لهم، ففي ذلك رحمة بهم، وطمأنينة وتزكية لنفوسهم، والله سميع لتوبتهم، ولدعائك واستغفارك لهم، عليم بنيَّات وأقوال وأعمال العباد.

[١٠٤] ثم حرض جل وعلا عباده علىٰ التوبة وأخبر أنه يقبل توبة من تاب من عباده مهما كان ذنبه! وأنه يتقبل منهم الصدقات! ثم أخبر سبحانه أنه كثير القبول لتوبة التائبين! ولو تكررت أخطاؤهم ثم تابوا! وأنه هو الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء!

[١٠٥] وقل يا نبي الله لهؤلاء التائبين وغيرهم: اعملوا الخيرات من الأعمال، فإن الله مطلع عليكم، عليم بحالكم، وأعمالكم هذه سيراها الله ورسوله ﷺ والمؤمنون، وسيتبين أمركم، ثم بعد ذلك تُرْجَعون إلىٰ من يعلم السرَّ وأخفىٰ، فيخبركم بجميع أعمالكم، ويجازيكم عليها، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، وهذا فيه حث لهم علىٰ العمل الصالح.

[١٠٦] ثم بين جل وعلا عن حال قسم آخر ممن تخلفوا، فقال سبحانه: وآخرون ممن تخلفوا عن غزوة تبوك مؤخرون ومؤجلون، وأمرهم إلىٰ الله، وقد ندموا علىٰ التخلف عن الغزو؛ فهؤلاء إما أن يعذبهم بعدله وحكمته، وإما أن يعفو عنهم بفضله ورحمته، والله عليم بعباده، حكيم في أقواله وأفعاله، وقد فعل سبحانه؛ حيث شملهم برحمته وعفىٰ عنهم بعد أن صدقت توبتهم؛ كما أخبر بذلك سبحانه في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة:١١٨].

وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ
وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ
لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ
مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن
يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ
عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ
عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى
ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً
فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ
﴿١١٠﴾ * إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم
بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ
وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ
وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟
بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

[١٠٧] يحكي جل وعلا عن طائفة من المنافقين أنهم بنوا مسجدًا مضارَّة وكيدًا، ومؤامرة علىٰ المؤمنين، وكفرًا بالله، وتفريقًا بين المؤمنين، وذلك أنهم أرادوا أن يمكِّنوا ببنائه لأهل النفاق والكفر، وانتظارًا لذلك المنافق الذي افتضح أمره وهرب إلىٰ الشمال وهو أبو عامر الراهب الفاسق، فهم ينتظرونه ليجتمعوا في هذا المسجد ليخططوا للكيد للإسلام؛ فالله أفشلهم وفضح أمرهم، وكلف رسول الله ﷺ بعض الصحابة بهدم المسجد وحرقه، وجعلت أرضه مكانًا للنفايات والزبالة، ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء المنافقين سيحلفون أنهم ما أرادوا ببنائهم هذا المسجد إلا الخير ونفع المسلمين، والتيسير علىٰ ضعيفهم وكبيرهم وضريرهم، والله يشهد إنهم لكاذبون في أيمَانِهِم، وشهادة الله عليهم بالكذب أوثق من أيمَانِهِم، وأصدق من حلفهم.

[١٠٨] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن لا يصلي في هذا المسجد الضرار ولا يقوم فيه أبدًا؛ فإن الله قد أغناك عنه بمسجدك؛ حيث أخبر ﷺ أن المسجد الذي أسس علىٰ التقوىٰ من أول يوم هو مسجده، وقيل: إنه مسجد قباء؛ فهو أحق بالصلاة والقيام والذكر والعبادة فيه، فهو مسجد فاضل كأهله الذين يحبون الطهارة الحسية والمعنوية، والله سبحانه يحب المتطهرين من الأحداث والذنوب. وقد ثبت في الأحاديث أن مسجد رسول الله ﷺ وهو المسجد النبوي أفضل من مسجد قباء ومن غيره من المساجد ما عدا مسجد الكعبة.

[١٠٩] يبين جل وعلا أنه لا يستوي مَنْ أسس بنيانه علىٰ قواعد محكمة وأساس متين خوفًا من ربه، قاصدًا رضىٰ الله سبحانه، ومَنْ أسس بنيانه علىٰ طرف مائل للسقوط متداعٍ للانهدام قاصدًا التفريق بين المؤمنين، فانهار به بنيانه هذا وسقط به في نار جهنم، والله لا يهدي ولا يوفق القوم الظالمين المتجاوزين لحدوده.

[١١٠] ثم أخبر جل وعلا أن هدم وحرق مسجد الضرار الذي بنوه لا يزال يبعث النفاق والشك في قلوب هؤلاء المنافقين، ولا ينتهي هذا النفاق والشك إلا أن تتقطع قلوبهم بقتلهم أو موتهم، والله عليم بما في قلوب هؤلاء المنافقين، حكيم في تدبير شؤون عباده.

[١١١] وعد جل وعلا وعدًا صادقًا لا رجعة فيه، وأخبر خبرًا صادقًا لا مرية فيه؛ عن أعظم الصفقات علىٰ الإطلاق، في هذه الصفقة: يكون الله جل في علاه هو المشتري، والعوض فيها أعظم ما يكون: جنة عرضها السماوات والأرض، والثمن فيها أعظم ما يمكن بذله علىٰ الإطلاق، وهو: نفس المؤمن التي بين جنبيه -والجود بالنفس أقصىٰ غاية الجود-، ثم ما يملك من مال الدنيا، كل ذلك في سبيل الله لإعلاء دينه في الأرض، فيقاتلون أعداء الله فيَقتُلون منهم، ولهم علىٰ ذلك أجر وغنيمة، أو يُقتَلون ويُستشهدون، فيكرمهم الله جل في علاه، وتكون لهم المنازل العالية في الجنة، وأرواحهم في حواصل طير خضر تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلىٰ قناديل معلقة تحت العرش، ثم يؤكد سبحانه هذه الصفقة العظيمة بأنواع من التأكيدات: بأن ذلك مكتوب، ومُثْبَتٌ، ومُسَطَّرٌ في أعظم الكتب التي نزلت علىٰ أولي العزم من الرسل، وهي التوراة والإنجيل والقرآن، ثم يستفهم سبحانه استفهامًا بمعنىٰ النفي، فيقول: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾!!، أي: لا أحد مطلقًا أوفىٰ من الله بالعهود، والله لا يخلف الميعاد، ثم يأمر جل وعلا أصحاب هذه الصفقة الرابحة - مقدَّمًا -، أن يفرحوا ويستبشروا، ويبشر بعضهم بعضًا بهذه التجارة الرابحة التي لم يربح أحد من الناس مثلها، وبهذا الفوز العظيم الذي لا فوز أعظم منه، ولا أكبر ولا أجلّ.

اللهم إنا نسألك من فضلك ياكريم أن تجعلنا منهم. ولاحظ أن هذه الآية الوحيدة التي قُدمت فيها النفس علىٰ المال في الجهاد، ولا شك أن المال أعظم نفعًا للمجاهدين.

ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ
ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ
وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ
وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟
أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ
مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا
كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ
إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ
لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ
هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ
عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ
وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾
لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ
ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ
فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾

[١١٢] وصف جل وعلا عباده المؤمنين الذين باعوا أنفسهم لله بصفات، منها: أنهم ملازمون للتوبة في جميع أحوالهم، وأنهم عابدون طائعون مخلصون لله في عبادتهم، وأنهم يحمدون الله في كل أحوالهم وأوقاتهم، وأنهم يسافرون في طاعة الله ومرضاته؛ فيحجون ويعتمرون ويطلبون العلم، ويجاهدون في سبيل الله، ويكثرون من الصلاة ويحافظون عليها؛ لذا تراهم دائمًا في ركوع وسجود، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويحفظون حدود الله ويقفون عندها؛ فمن اتصف بهذه الصفات يانبي الله فبشره بالفوز العظيم والفلاح المبين.

[١١٣] يخبر جل وعلا أنه ما ينبغي للنبي والذين آمنوا أن يطلبوا المغفرة للمشركين الذين كفروا بالله وعبدوا معه غيره، وماتوا علىٰ ذلك، ولو كان هؤلاء المشركون أقرب نسبًا، فإن من مات علىٰ الشرك كان من أصحاب الجحيم لا محالة.

[١١٤] ثم أخبر جل وعلا أن استغفارَ إبراهيم عليه السلام لأبيه كان عن موعدة وعدها لأبيه بقوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ [مريم:٤٧]، وذلك قبل أن يتبين له عداوة أبيه لربه بالشرك، وأنه من أهل النار، فلما تبين له ذلك تركه وتبرأ منه، ولم يعد يستغفر له، واعلموا أن إبراهيم عليه السلام كثير التضرع والرجوع إلىٰ الله، وكثير العفو والصفح عمن آذاه.

[١١٥] ثم أخبر جل وعلا أنه ما كان ليضل قومًا بعد أن مَنَّ الله عليهم بالهداية حتىٰ يبين لهم جميع ما يحتاجون إليه من أحكام الدين، إنه سبحانه عليم بكل شيء، وقد علمكم ما لم تكونوا تعلمون.

ونسبة الإضلال إلىٰ الله لأنه هو الذي أقدرهم عليه؛ حيث جعل سبحانه الثقلين الإنس والجن مختارين، وبين لهم الخير والشر وهداهم لأخذ أحد الأمرين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠]، أي: الطريقين، وبين لهم ما يتقون؛ فإذا أخذ أحدٌ سبيل الضلال وأصر علىٰ الكفر حينئذٍ يكون إضلال الله له إضلالًا جزائيًا وليس ابتدائيًا، وكذلك الطبع والختم.

وهكذا في القرآن كله فإن إضلال الضالين يكون بعد إبلاغهم وإيضاح الحق لهم؛ فإذا رفضوا وأصروا علىٰ الكفر طبع الله علىٰ قلوبهم وحقق لهم مرادهم؛ وإلا فإن الله سبحانه لا يحب ولا يرضىٰ لعباده الكفر، لكن حكمته أن جعل الإنسان مختارًا، ومن أجل أن لا يكون للناس علىٰ الله حجة كانت الرسالات؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [إبراهيم:٤]، فإذا اتضحت للمكلف سبل السلامة وسبل الهلاك فاختار طريقًا منهما فهو المسئول عن اختياره فلا يلومن إلا نفسه.

[١١٦] يخبر جل وعلا أن له ملك السماوات والأرض، أي: خَلْقًا وملكًا وتصرفًا، وهو وحده سبحانه الذي يحيي ويميت؛ فإذا تخلىٰ الله عنكم فما لكم من أحد غير الله يتولاكم بجلب ما ينفعكم ودفع ما يضركم، وما لكم من دون الله من نصير ينصركم علىٰ عدوكم.

[١١٧] ثم ذكر جل وعلا أنه تاب علىٰ النبي ﷺ ومن معه من المهاجرين والأنصار الذين خرجوا معه لقتال العدو في غزوة تبوك وقد كانت في حر شديد وقلة زاد، وبعد أن كاد أن يتخلف بعضهم عن الجهاد، ولكن الله ثبت قلوبهم وتاب عليهم، إنه جل وعلا كثير الرأفة والرحمة بعباده.

والتوبة المذكورة في هذه الآية هي رفع الدرجة والتوفيق لها.

وَذِكْرُ النبي هنا مع أنه ﷺ معصوم ولم يخطئ إلا فيما عاتبه الله عليه بقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٣]، ولكن كما قال ابن عباس رضي الله عنه: (فَذِكْرُهُ معهم هنا تلطيفٌ وتأليفٌ، ولئلَّا تستولي عليهم الحسرة، وليعلموا أنها صفحة طويت)؛ فالحمد لله علىٰ كرمه ولطفه بعباده.

وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ
بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ
مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم
مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ
بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ
وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا
يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ
لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ
﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ
وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ
فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ
وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

[١١٨] وكما تاب جل وعلا علىٰ النبي ﷺ وعلىٰ المهاجرين والأنصار؛ فقد تاب سبحانه علىٰ أولئك النفر الثلاثة الذين تخلفوا عن الخروج مع النبي ﷺ في غزوة تبوك وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، بعد أن حزنوا حزنًا شديدًا، وضاقت عليهم الأرض الواسعة، وضاقت عليهم أنفسهم من شدة الحزن، وتأكدوا أنه لا ملجأ لهم من غضب الله إلا بالتوبة والصدق، فوفقهم سبحانه لطلب التوبة والندم علىٰ المعصية؛ فتاب الله عليهم إنه هو التواب علىٰ عبادة التائبين، الرحيم بهم.

[١١٩] وهذا نداء من الله جل وعلا لعباده المؤمنين، وأمر لهم بأن يحققوا التقوىٰ بأن يجعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وبأن يكونوا مع الصادقين في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم.

[١٢٠] واعلموا أنه لا يصح ولا يحسن ولا يليق بأهل المدينة من مهاجرين وأنصار، ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا ويتأخروا في الغزو مع رسول الله ﷺ؛ ولا يرضوا لأنفسهم البقاء والراحة، ويقدموها علىٰ نفس رسول الله ﷺ الكريمة، وهو ﷺ مثلهم الأعلىٰ؛ فقد قدم ﷺ نفسه للجهاد وهو إمام المسلمين وقدوتهم؛ فعليهم أن لا يشحوا بأنفسهم وأن يقتدوا به ﷺ، كما قال تعالىٰ: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ ﴾ [الأحزاب:٢١]، ثم أخبر سبحانه أن لهم في الخروج ثوابًا عظيمًا؛ فهم لا يصيبهم في ذلك الخروج للجهاد عطش ولا تعب ولا جوع شديد، ولا يدوسون أرض الكفار فيغيظونهم بذلك، ولا يصيبون منهم قتلًا أو أسرًا، أو هزيمة أو غنيمة؛ إلا كتب الله لهم ذلك في أعمالهم الصالحة التي سيثابون عليها أعظم الثواب؛ فخطواتهم في الذهاب والإياب مسجلة لهم، والله جل وعلا لا يضيع أجر المحسنين المخلصين الصادقين الذين أحسنوا في مبادرتهم واستجابوا لأمر الله.

[١٢١] وهؤلاء الذين خرجوا للجهاد في سبيل الله مع رسول الله ﷺ لا ينفقون نفقة في الجهاد قليلة ولا كثيرة، ولا يقطعون واديًا ذهابًا للعدوِّ أو إيابًا، إلا كتب الله لهم أجر ذلك العمل الصالح؛ ليجزيهم الله علىٰ جهادهم وتضحيتهم أحسن ما يكون الجزاء وأوفاه.

[١٢٢] واعلموا أنه ما ينبغي للمؤمنين أن يخرجوا جميعًا للجهاد، ولا ينبغي لهم أيضًا أن يقعدوا جميعًا عن الجهاد؛ بل يخرج منهم للجهاد جماعة تحصل بهم الكفاية، ويبقىٰ من لم يخرج للجهاد ليتفقهوا في الدين ويتعلموا العلم الشرعي، ثم يعلمونه غيرهم، ويُنذِرون قومهم ويحذرونهم بما تعلموه عند رجوعهم، لعلهم يحذرون عذاب الله وعقابه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ
وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ
﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ
هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ
يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ
رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا
يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ
ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ
أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم
مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ
لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ
عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ
رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

سورة يونس

[١٢٣] يرشد جل وعلا المؤمنين أن يبدؤوا بقتال الأقرب فالأقرب من الكفار، وليجدوا فيكم شدة وصبراً ومصابرة، واعلموا أن الله مع المتقين الذين يعملون بأوامر الله ويجتنبون نواهيه، فهو يؤيدهم وينصرهم.

[١٢٤] ثم وضح جل وعلا موقف المنافقين المخزي عند نزول القرآن؛ حيث يقولون سخرية واستهزاءً: أيكم زادته هذه السورة تصديقًا بالله وآياته؟، ثم بين سبحانه موقف المؤمنين المستبشرين برحمة من الله، أن هذه الآيات زادتهم إيمانًا ويقينًا وتصديقًا، وأنهم يفرحون بما أنزل الله من الآيات والسور علىٰ نبيه ﷺ، وبما فيها من الفوائد والأحكام.

[١٢٥] ثم أخبر جل وعلا أن أولئك الذين في قلوبهم شك ونفاق فقد زادتهم السورة شكًّا وحيرة ونفاقًا، واستمروا في كفرهم حتىٰ ماتوا وهم كافرون جاحدون بآيات الله وبرسوله ﷺ في قلوبهم.

[١٢٦] ثم وبخ جل وعلا هؤلاء المنافقين علىٰ قسوة قلوبهم وغفلتهم، فقال سبحانه: أولا يرىٰ هؤلاء المنافقون أن الله يبتليهم ويختبرهم بالبلايا من قحط ومرض وجوع، وبإظهار ما يبطنون من النفاق كل سنة مرة أو مرتين، ومع ذلك لا يتوبون ولا يرجعون عما هم عليه من الشر، ولا هم يذَّكَّرُون فلا يعملون ما ينفعهم، ولا يتركون ما يضرهم!

[١٢٧] ثم أخبر جل وعلا أنه إذا أنزل علىٰ رسوله ﷺ سورة من القرآن، وهم جلوس يسمعون، فإنهم لنفاقهم وشكِّهم يخافون أن تفضحهم هذه السورة وتنبئكم بما في قلوبهم، فينظر بعضهم إلىٰ بعض غمْزًا وإنكارًا وسخريةً، وعزْمًا علىٰ عدم تصديقها أو العمل بها، ثم يتساءلون في ريبة: هل يراكم أحد من المؤمنين؟! فإن لم يرهم أحد قاموا سراعًا متسللين مختفين -خشية الفضيحة-، ثم انصرفوا من ذلك المجلس، فعاقبهم الله -من جنس عملهم- فصرف قلوبهم وصدَّها وخذلها عن الحق ومعرفته، وعن الإيمان والانتفاع بهداية القرآن، بأن جعلهم لا يفهمون ولا يتدبرون.

[١٢٨] ثم ختم جل وعلا السورة بذكر مِنَّتِهِ العُظمىٰ علىٰ عباده المؤمنين بأن بعث فيهم رسولًا من جنسهم، ومن أفضلهم؛ يتألم بألمهم ويفرح بفرحهم، وهو حريص علىٰ إيصال الخير لهم ودفع الشر عنهم؛ وكثير الرأفة والرحمة بالمؤمنين، وهو الأمثل والأصلح لأن يكون أسوة وقدوة لكل المؤمنين؛ فلله الحمد والشكر علىٰ نعمه التي لا تُحصىٰ، وأجلها وأكبرها أن حبب إلينا الإيمان، وأرسل إلينا أفضل رسله، وهو نبينا محمد ﷺ الذي هدانا الله لاتباع النور الذي جاء به.

وفي قوله: ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾، أي: من جنسكم، وفي قراءة: (من أَنْفَسِكُم)، أي: من أفْضَلِكم.

[١٢٩] ثم قال جل وعلا لنبيه ﷺ: إذا أعرض بعض الناس عن دعوتك والإيمان بك يانبي الله فلا تيأس، وامض علىٰ سبيلك قائلًا: حسبي الله، يكفيني جميع ما أهمني، لا معبود بحق سواه، عليه اعتمادي وثقتي، وإليه التجائي، وبه استعانتي، وهو رب العرش العظيم.